جبل المصايب

(المقتطف) من غريب الاتفاق انهُ وصل الينا في العام الماضي مقالتان في موضوع واحد الواحدة من سوهاج وتاريخ ارسالها الينا غرة ابريل والثانية من لبنان وتاريخ ارسالها الينا ١١ نوفمبر. والمقالتان متفقتان في موضوعهما مختلفتان في اسلوب البحث فيهِ الاولى مترجمة ترجمة والثانية مبنيَّة على الاساس الذي بنيت عليهِ المقالة الاولى وها نحن نوردهما معًا لما فيهما من الفائدة والفكاهة

(١) جبل المصايب

قرأت منذ ايام مقالة لاديصن الكاتب الشهير تحت عنوان جبل المصايب فآثرت تعريبها وارسالها الى مجلتكم الغيحاء لتدرج فيها وهي :

قول لسقراط مشهور وهو " اذا جمعت مصايب الناس الى مكان واحد لكي تقسم عليهم بالتساوي فالذين يعدون انفسهم اشد الناس شقاء واكثرهم نكدًا يفضلون نصيبهم الاول على ما ينالهم بهذه القسمة " وذهب هوراس الى ما هو ابعد من ذلك فقال " ان الآلام والمصايب التي نراه تحتها اخف علينا مما لو ابدلناها بتعاسب غيرنا اذا امكن الابدال "

بينما كنت ملقًى على كرسي اتأمل ما حوت هاتان العبارتان من بديع المعنى وجميل المبنى ران جفني الكرى فرأيت جوبتر ينادي الناس قائلا تعالوا يا جميع المتعبين والثقيلي الاحمال واطرحوا اثقالكم في هذا المنبسط الفسيح الذي اعد لذلك . فوفد الناس زرافات ووحدانًا بعضهم وراء بعض وطرحوا اثقالهم حتى تكوَّنت اكمة من المصايب كادت تناطح السحاب ثم ظهر شيخ امرأة عليها سيمة الاهتمام بهذا الاحتفال في احدى يديها مرآة معظمة وهي مرتدية ثوبًا واسعًا رسمت عليهِ اشكال المردة والشياطين . وكلما هزت الريح هدب ثوبها تناثرت منهُ ازياء مختلفة كانهُ خيال الظل يمثل جيشًا من الناس يترامون من كل فج عميق . وكانت هذه المرأة واسمها الاهة الوهم ترسل نظرات حادَّة متقلبة كأن بها مسًّا او خبالاً . ثم جعلت تقود الناس الى الموضع المعين لطرح الاحمال والرزايا وهي تساعدهم على حملها بجد ونشاط . وما طرح الناس مصايبهم عن كواهلهم حتى ذابت احشائي لما رأيت مقدارها الهائل

رأيت رجلاً يحمل صرةً وهو يخبئها تحت ثوب عتيق حتى اذا وصل الى الساحة رمى بها فاذا هي الفقر . ورأيت آخر يمشي وهو يحمل شيئًا ثقيلاً رمى بهِ وسار فنظرت اليهِ واذا هو امرأتهُ

ورأيت قتلى الحب وأسرى الغرام يسيرون الهوينا ونار الهوى تتأجج في انئدتهم ودموع الشكوى تنحدر على وجناتهم فتزيد نيرانهم اشتعالاً ولما وصلوا الى جبل المصايب تنهدوا وفاضت دموعهم وصغرت نفوسهم لكن لم تسمح خواطرهم بطرح اسباب محنتهم بل هزوا رؤوسهم وعادوا ادراجهم يحملون احمالهم كما جاءوا بها مفضلين الالم المقيم على ترك الحبيب

ورأيت جمعاً من العجائز رمين غضون الوجه وسمرة الجلد . ورأيت كومة كبيرة من الانوف الحمراء والشفاه الضخمة والاسنان السوداء ودهشت لان اكثر ما كنت اراهُ من عيوب الخلقة . ثم رأيت رجلاً يسير الهوينا وعلى ظهرهِ حمل اثقلهُ فرماهُ عنهُ وعاد جزلاً مسروراً فنظرت واذا ما رماهُ حدبة كانت في ظهرهِ

ورأيت اشكالاً متنوعة من سوء الخلق ورداءة الطباع تفوق الحصر والعد . ومما يستوقف النظر بينها ويزيد الاسى ان داء الحقد والضغينة كان اعم من كل شيءٍ سواهُ

هنا يقف القارئ مدهوشاً اذا قلت لهُ اني لم اجد رذيلة واحدة طرحها صاحبها عنهُ ولا جهالة من الجهالات الكثيرة . وقد زادت دهشتي وعظم استغرابي لان الوقت كان وقت التخلص من الرذائل والمفاسد ومع ذلك لم يلتفت احد الى طرحها عنهُ

ومما يدل على ان الاحمق عبد لشهواتهِ اني رأيت فتىً حاملاً ديونهُ فلم يطرحها عنهُ بل طرح خسائرهُ وآخر طرح ادبهُ بدل جهالتهِ

ولما اتمَّ الناس طرح اثقالهم التفتت المرأة اليَّ ورأتني متكاسلاً عن الدنو من الساحة فاقتربت مني ووضعت مرآتها العظيمة امام عيني وأرتني وجهي فيها وقد تحوَّل الى وجه قزم ازعجني مرآهُ وثقل عليَّ قبحهُ . ولاختلال التناسب في نقاطيهِ ساء خلقي وقبحت ملامحي فحسرتهُ عني كي حسر نقاباً واتفق ان انساناً كان واقفاً الى جانبي لهُ وجه طويل تكاد ذقنهُ تفوق وجهي كلهُ فلما رآني طرحت وجهي عني النقطهُ ولبسهُ بدلاً من وجههِ فلبست وجههُ بدلاً منهُ

ورأيت الناس وقفوا حول جبل المصايب وقد خلا كل منهم من مصايبهِ وجعلوا ينظرون الى ماتيهِ ويتمنى كل واحد منهم ان ينال شيئاً منها

ومرَّ جوبتر عليهم وهم محدقون الى تلك المصايب واباح لهم ان ينتقي كلٌّ منهم ما يحلو في عينيهِ منها وجعلت الالهة الوهم تهتم بمساعدتهم على انتخاب ما يريدونهُ وتحمِّل كلاً منهم حملهُ الجديد فرأيت شيخاً وقوراً كأن الشيب ناصيتهُ طرح عنهُ صفرة وجههِ وجعل يطلب بدلاً منها وريثاً يرث املاكهُ المترامية الاطراف ورأى ابناً غاضباً رمى ابنهُ ليتخلص منهُ فبادر اليهِ والتقطهُ حاسباً انهُ اصاب مغنماً . وما سار الابن العقوق مع هذا الشيخ البار قيد باع حتى

امسك بلحيته وجعل يلطمهُ نصرخ الرجل مستغيثاً بابي الفتى لكي يعيد اليهِ صفرتهُ و يأخذ ابنهُ

رأيت زنجيًّا طرح عنهُ قيود العبودية واستبدلها بداء النقرس فكان كالمستجير من الرمضاء بالنار . وامورًا اخرى كثيرة من هذا القبيل فمن رجل استبدل مرضًا بفقر او سوء الهضم بالجوع او الالم بالهم ونحو ذلك مما يطول شرحهُ

وكان النساء يتقايضن اشياء من فواحدة تطرح عنها شعرًا بزغ فيهِ فجر المشيب وتستبدلهُ ببزة حقيرة واخرى تستبدل كتفًا مستديرة بخصر قصير وثالثة تبدل صيتًا قبيحًا بوجه مشوه ولكن لم أرَ واحدة ابدلت عيبًا بعيب اقل منهُ قبحًا

ولقد اخذتني الشفقة على الرجل الاحدب الذي اختار وجهًا صبوحًا بدل حدبتهِ فان الوجه الصبوح كان ممحوبًا بحصاة في الثنانة . وعطفت على الرجل الذي ساومهُ هذه المقايضة وخرج يتكئ وكفاهُ فوق رأسهِ والنساء ينظرن اليهِ و يضحكن عليهِ

اما انا فان صاحبي ذا الوجه الطويل الذي اخذ وجهي القصير ظهر فيهِ بشكل مضحك فكنت اضحك حتى الخص الارض برجليَّ كلما نظرت اليهِ ولما رآني كذلك تولاهُ الخجل . ومددت يدي لا لمس وجهي فلمست شفتي العليا ولطمت يدي انني اكثر من مرتين وانا اجيلها على وجهي فعلمت انني زدت قبحًا على قبح

والخلاصة انهُ ما تفرَّق جبل المصايب على اولئك الناس حتى سمعت التذمر والبكاء والعويل من كل الناس ورايتهم يفضلون العود الى حالتهم الاولى فتحنن عليهم جوبتر وسمح لهم ان يطرحوا ما اخذوهُ و يستردوا ما طرحوهُ فابرقت اسرتهم واختفت الاهة الوهم وظهرت الاهة اخرى تلوح على وجهها سماء السكينة والهدو وهي الاهة الصبر ولما ظهرت القت نظرها على تلك المصايب المشتعلة فبدأ لهبها يخمد وثورتها تسكن فطيبت القلوب المنكسرة واعادت الى الناس مصايبهم الاولى وعلمتهم احتمالها فرضخ كل انسان لحكمها وحمل حملهُ شاكرًا . انتهى باختصار قليل

جبره تاوضوروس

(٢) جبل التعاسات

ان من ظنون سقراط المأثورة والمشهورة "ان لو جمعت كل تعاسات بني آدم الى مستودع عمومي ربما يصير توزيعها على الناس على اختلاف طبقاتهم لظهر حينئذٍ ان من ظنوا انفسهم اشقى ابناء جنسهم يختارون البقاء على ما قسم لهم من البؤس عند ما يرون ما يصيبهم منهُ لدى التوزيع"

وقد توسع هوراس في ذلك وقال "ان ما نكابدهُ من المصايب نراهُ اخف حملاً مما يكابدهُ الغير لو عرضت علينا المقايضة فيها"

بينما كنت اتأمل فيما قالهُ هذان الفيلسوفان وانا جالس على كرسي ومتكئ على احد مساندهِ رانت عليَّ جفوني سنة الكرى فحلمتُ اني واقف في حضرة جبار السموات تطوف بهِ الاملاك ملائكة وملكات ثم رأيت ماردًا طول احد المذنبات ينفخ في بوقٍ يهز صوتهُ الارضين وعلى يمينهِ غانية لا يتصور العقل اجمل منها طلعة لكن على جبينها من الاسرَّة والغضون ما دلَّ على انها كافحت في عمرها نوب الايام تعبس في وجههِ حينًا وتبسم لي احيانًا. فتقدمت خطوة اليها اريد الاستفهام عن مغزى ما ارى فقالت قبل ان افوه بكلمة لا تسأل ان المقام رهيب عليك بالصمت لكن لكَ عليَّ ان ادلك على ما تريد الوقوف عليهِ وانا اسمي الصبر ثم اشارت الى الماردِ وقالت لهُ اذا كان لابد فانفخ بصورك وادعُ البشر قاطبةً رجالاً ونساء من ابن خمسة عشر حولاً الى ما ينتهي اليهِ عمر الانسان الى بطحاء امتدت امامي كمح البصر خلتها تسع الارض وما عليها ادعُهم لكي يأتي كل منهم حاملاً مصيبتهُ وما يشكو منهُ ويلقي بما حمل في وسط تلك البطحاء فلما صدع بامرها لم ارَ الاَّ وقد ثار الغبار وانتشر العفار في مسالك الارض وطرقاتها وبين شعاب الجبال وفجاجها من وطء اقدام المدعوين ولفظ البحر ما على ظهرهِ من فلك ملأى بالملاحين حتى خلت إطباق الحشر ورحتُ اسوب الطرف واصعدهُ لارى اين ينصب الميزان فاذا بكل قادم الى وسط تلك البطحاء التي يحمل مصابهُ او عاهتهُ او نكبتهِ بعضها بشكل حزمة والبعض بهيئة كتلة منها كبير يتمعج او طويل يتلوى ومنها ما كاد حاملهُ يزرح من ثقلهِ او هو صغير لا يتجاوز حجمهُ قبضة اليد. ورأيت بينها فقاقيع كأنها لا تحوي غير هواء سارح الى غير ذلك من ضروب الاحمال حتى اصبح المستودع جبلاً شاهقًا حالت قمتهُ عنان السماء. فلبثت انتظر ما سيكون واذا الحجاب انشق في طرفٍ من السماء وبرزت منهُ عجوز حيزبون تتوكأ على افعوان ارقش ويتدلى على صدرها قلادة من العقارب وعليها مرط او غلالة مطرزة بصور عاهات الناس وبلاياهم لكن في وسط كل صورة من هذه الصور نقطة برَّاقة تنبئ عن وجود رميس الامل بالنجاة او بالشفاء. فاجفلت لرؤياها وقلت لربة الصبر الرافقة على كثبٍ مني ومن تكون هذي فاشارت رمزًا وايماءً الى انها ربة الرزايا وطاغية الناس الكبرى حتى اذا ما وصلت الى سفح جبل التعاسات المتكون منذ لحظة من مصائب الناس وقفت وحولها اعوان وجلاوزة بينهم مندوب رفيع الشأن ينوب عن الجبار الاعلى. ثم نفخ المبوق فجاء الناس اليها شيوخًا وكهولاً وشبانًا وصبية ذكورًا واناثًا زوجًا زوجًا لحاقًا ثباعًا بعضهم وراء

بعض دون ازدحام او تشويش لا كما فعلوا عند القائهم مصابيهم في المستودع العمومي اذ جعلوهُ لشدة لهفتهم وعجلتهم طوداً شاهقاً مشوش الهندام وغير مستوي الاطراف. فاطاع الناس الامر ومشوا كما امرت ربة الرزايا الى ان بلغ الزوج الاول موقفها فاخذت تسأل الواحد ثم تسأل الآخر عما احنوتهُ وديمتاهما اللتان القياهما في المستودع المسمى بجبل التعاسات فيقول الواحد مصيبتي داء عقام صاحبني العمر وما عرفت لهُ دواء ويقول الآخر بليت وانا يافع بالنقر المدقع مفترشي الارض ابيت كل ليلة طاوي الحشى. فتقول ربة الرزايا وهل لكما في مقايضة هذي الاحن فيقولان ذلك ما نبغي فتشهد اذ ذاك عليهما مندوب الجبار الاعلى ومن احاط بها من الجلاوذة وتصرفهما وكل منهما لابس رزية الاخر. ثم يؤتى اليها بالزوج التابع فتسألهُ كما سألت من تقدم فيقول الواحد العقم في الذرية والآخر كثرة الاولاد فتصرفهما وقد تبادلا ما يشكوان منهُ. ثم يصل الزوج التالي فيشكو الواحد من حدبة على ظهرهِ والآخر من اتب على صدرهِ فيذهبان بالحدبة موضع الاتب وبالاتب موضع الحدبة ثم يؤتى بالزوج اللاحق فيقول الواحد شكايتي من زوجة غيور ويقول الثاني من زوجة سكرى فيذهبان كما ذهب السابقون كل يحمل زوجة الآخر ثم يجيء بالتابع فيقول الواحد مصيبتي ولد عقوق ويشكو الآخر حرمانهُ من الاولاد فينصرفان وقد حل الواحد محل الآخر وهلم جرًّا زوجاً زوجاً من اصحاب المصائب والشكايات الذين لم استطع تعدادهم وقد رأيت بينهم كثيرين من اصحاب المناصب العالية يتقايضون الشكايات من اخس الصعاليك

حتى اذا اتمت ربة الرزايا توزيع ما اودع على جبل التعاسات بطريقة المقايضة بين المبتلين الشاكين وتمهد الجبل كانهُ لم يكن وهمت مع رهطها بالانصراف ارتفع من جانب ساكني الارض جلبة نوح وعويل كادت توقظني من حلمي او تقيم الاموات من قبورها فامسكت ربة الرزايا مع رهطها عن المسير وسألت من المارد المبوق عن سبب الانين والصيحات المزعجات فقال ان المتقايضين ندموا على ما فعلوا ويريدون الرجوع عن المبادلة ويطلبون العودة الى العاهات والرزايا والمصايب والبلاوى التي كانوا عليها فقالت نادهم بصوتك ان يجيئوا الينا كاذهبوا ازواجاً كي نستقصي منهم عن اسباب النكول فنفخ المارد وما عتمت حتى رأت اقبال الناس لكن على خلاف ما كانوا عليهِ من الرضى والاستبشار يوم جاءوا باحمالهم الى جبل التعاسات وظنوا ان التوزيع والمقايضة بالمصائب خير لهم من البقاء عليها. فلما وصل الزوج الاول وحظي بالمثول لدى ربة الرزايا سألت احدهما وكان قد آثر الفقر المدقع على الداء العقام وقالت ما سبب ندمك على ما اخترتهُ امامي برضاك فقال مولاتي لم اعلم اني

خلقتُ ألوفًا لو رجعتُ الى الصبا لفارقت شيبي موجع القلب باكيا

فلا تخفى عن علومك ان المصاحبة الطويلة الامد ولو مصاحبة داء السرسام لقد توسع في صدر الانسان محلاً للالفة عليهِ فشفائي منهُ وانفاسي بالفاقة والاملاق صفقة واحدة ودون تمهيد او تعويد حملاني على انكار البذل والبديل هذا وقد كان لي من دأبي شاغلاً الهو بهِ عن غيرهِ من كوارث الحياة لاني

الفت السقم حتى صار جسمي اذا فقد الضنى امسى عليلا

وكان لي كما تعلمين رئيس امل بالشفاء منهُ فلهذا اطلب اليك لطفًا وكرمًا اعادة داعي اليَّ بلا تريثٍ او امهال . فادارت وجهها ثم سألت الآخر وهو الذي رضي بالداء العقام بدلاً من فقرهِ المدقع وقالت لهُ ما الذي حملك على النكول فقال وان كنت فيما مرَّ من عمري معدمًا من كل ملاذ الواحة في الحياة مطرودًا من الناس معذبًا برؤية ما لا استطيع الوصول الى اقل شيءٍ منهُ انام طاوي الحشى ينهشني الجوع ويلفحني الحر او يهرأني البرد ولافراش لي غير السماء الاَّ انهُ كان لي عزاء واحدٌ لم اجدهُ في الداء العقام الذي اعطيتهُ وذلك اني كنت استبيح ما يستبيحهُ المترف اترفه وكنت اعلل النفس بالعثور يومًا على كنزٍ مخبوء ينهض بي الى رتبة المنعمين فلهذا ارجو منك ارجاعي الى فقري مهما كان شديدًا . فادارت الحاظها قائلة لقد سجلت مقايضتكما ولا يمكن الغاؤها فاذهبا عني فذهبا يعولان بالبكاء

ثم جيء اليها بزوج آخر فسألت احدهما وكان قد اختار كثرة الاولاد على ما كان لهُ من العقم فقال كان همي ونكد عيشي من العقم لعلمي باني لا اخلف من يبقي لي ذكرًا بين الناس وكنت وانا فيهِ لا ابالي ولا احفل بمال اكسبهُ لعلمي انهُ لا يكون موروثًا بعدي لولد من لحمي ودمي فلما استبدلتهُ وولدت ما شاء القدر من الاولاد وكنت كما لا يخفاك غير معتاد تربيتهم لقضائي معظم العمر محرومًا منهم الفيت السهر عليهم وتمريضهم والتوجع لاوجاعهم اشد ما ينكب بهِ الانسان في هذه الحياة ثم عرفت ان ما كنت اؤمل اذخارهُ ليكون ميراثًا لولدٍ من دمي اصبح من المستحيل الحصول عليهِ او الاحتفاظ بهِ لان ما اتكلفهُ من النفقة عليهم يستغرق كل ما ملكت او املاك حتى صرت على وشك الهبوط واياهم في هاوية العوز فصبرت عالةً على المجتمع الانساني فما كان اجدر بي باربة الرزايا لو بقيت باقي العمر عقيمًا آكل مريًّا واشرب هنيًّا واورث وانا في قيد الحياة من احب من الناس او اقوم بعمل خيري يخلد لي ذكرًا جميلاً . ثم سألت الآخر وقالت انت الذي اخترت العقم على كثرة الاولاد فما الداعي لرجوعك عنهُ الآن فقال لاني وجدتني بعد العناء بولادتهم وتربيتهم موحشًا منهم وطريدًا بعدهم في سبب الحياة

وان ما انكرتهُ زمناً من هموم العناية بهم وما تحملتهُ من صلفهم ونزغات نفوسهم وما تجشمتهُ من النصب في اعالتهم صرت اراهُ الآن نعمة ذهبت بالنسبة لما اورثني الظلم منهم من الكآبة والحزن لاني صرت ارى نفسي كأني في قفرٍ لاشعاع فيهِ اقل سراب امل يعللني بان اجد عند موتي من يغمض لي عيناً أو يذرف على قبري دمعة . نعم وبما تقولين ياربة الرزايا وما انتفاعك بعد الموت من ذلك اقول ان الوهم مابرح منذ الازل سائداً على عقول الناس ولعلك انت نفسك تستمدين معظم سلطانكِ منهُ . فقالت لها كما قالت لمن تقدم ان الرجوع عما قبلتا بهِ غير ممكن فذهبا يبكيان . ثم جيء اليها بالزوج التالي وكان احدهما قد اختار الآنب على الحدبة فقال طلعت الاتب اخف حملاً فاذا بهِ اثقل على صدري يمنعني بروزهُ من رؤية ما تحتهُ من جسمي ومن رؤية ما امامي على الارض فان بصقت فعليهِ واذا عانقت فجبل حائل بيني وبين المعانق واذا اضطجعت فعلى صدري هضبة لا نبت فيها . حالةٌ لا استطيع معها الحياة . فالتفتت الى الاخر الذي اختار الحدب على الاتب فقال من الجنون ان يضع الانسان على ظهرهِ جبلاً يرزح تحتهُ ابد العمر لا يتمكن معهُ من رؤية ما فوقهُ ويبقى محروماً من رؤية السماء وبهجتها ومن رؤية من يقابلهُ او يخاطبهُ ان مشى فمشي سلحفاة وان جلس فجلوس ارنب فارحمي حالي ياربة الرزايا واقيلي عثرتي وردي اليَّ ابتي فقالت كما قالت لمن سبق لا مردَّ لما مضى

ثم أُتي الى حضرتها باثنين كان احدهما قد اختار الزوجة المدمنة الخمر على الزوجة الغيور فابتدرتهُ ربة الرزايا بقولها اني أراك شاحب اللون وفي وجهك اثر الطدوش قال نعم لاني فضلت مدمنة الخمر على الغيرى . قالت صف لنا حالك قال برحنا جبل التعاسات ومعي زوجتي الجديدة فسارت معي كانها خارجة من جانة لهو وطرب فقلت لها اقلي الغناء والعربدة في الطريق فقالت ومن اقامك عليَّ رقيباً . وما دخلت داري حتى شرعت تفتش عن القناني والاكواب وتقول بئس الدار ان لم تحوِ ما يقصي الترح ويجلب الفرح ثم رفعت اناء بديع الصنعة غالي الثمن لانها لم ترَ فيهِ خمراً فحققتهُ وخرجت ثم عادت وفي يدها قارورة ملئها سلافة من عهد نوح اشترتها بنصف ثمن الدار . فقلت لها ارحمي فقري فاني لا املك غيرها فقالت وهل يغني السكن عن هناء الساكن ألا تعلم ياذل الرجال ان السكر خير من الصحو في هذه الحياة . ولما انتهرتها على العربدة تناولتني بكفها وها اثر اظافرها في وجهي وعنقي فصبرت لعل الموت يريحني منها او يريحها مني . ثم قتلت ابنها الوحيد وهي سكرى فعيل صبري وخرجتُ اهيم على وجهي حتى اذا سمعت المصوت يدعو الناس هرولت اليكِ لكي تردي عليَّ زوجتي الاولى اذا كان لابد من زوجة

وجيء بالرجل الآخر فلما مثل في حضرة ربة الزايا اخذ يلتفت يمنةً و يسرة خائفاً مذعوراً لئلا تكون زوجتهُ الجديدة آتية في اثرهِ . ولما هدأ روعهُ قال اليكِ يا مفرقة الزايا اشكو من زوجة غيور ظننتها اخفَّ وطأة عليَّ من زوجة سكيرة مسرفة فاذا هي اشد نكاية لان الاولى لم يكن سكرها متصلاً فكنت استريح في الفترات اما هذه فلا تغفل عينها عني لحظة لا نهاراً ولا ليلاً حتى اذا اردت المنام قالت لي حذار ان ترحب بالخيال الزائر . ولا اذكر اني افقت مرةً من الرقاد الاَّ قابلتني بوجه عبوس واحداق مزورة وهي تقول هل انت بطيف ياخائن ولا تزال تسبني وتشتمني الى ان اتم لبس ثيابي ولا ادري كيف البسها القميص على الرأس والحزام على الساق حتى اذا خرجت من الحجرة ارسلت ورائي من يتجسس امري او اقتفت خطواتي بنفسها وكثيراً ما تتنكَّر وتتبعني بازياء مختلفة واذا رأتني منفرداً قالت لي بين تفكر الآن يا شيطان واذا رأتني مع قوم اشركتهم معي في السباب حتى اضطررتُ ان اغاضب صحبي واهل عشيرتي . وقلت لها مرةً قولي لي بربك اعن حبٍّ بي ما اراهُ من غيرتكِ . قالت كيف لا . قلت المحب يرضى لحبيبهِ ما يرضيهِ واراكِ على خلاف ذلك سيئة اعمالكِ لانها تسوءني وتحرمني لذيذ العيش قالت ان ذلك لا يهمني ما دام فيهِ رضائي . قلت اذاً غيرتكِ ناشئة عن حب لذاتكِ لا عن حب لزوجكِ كما تدَّعين . فقالت ظنَّ ما شئت واعلم اني واكثر النساء لا نطيق ان يمازج حب ازواجنا لنا شيءٌ يلهيهم عن عبادتنا وليس لهم ان يطالبونا بحب لا يكون مداره ومرجعهُ حب انفسنا . وعلمت حينئذٍ ان قيد الاسر مشدود على عنقي فجئتُ استجير بكِ ياربة الزايا من ظالمة لا يعرف ظلمها الاَّ زوجها . فقالت لهُ كما قالت لمن قبلهُ ان عقد كما لا فكاك لهُ

ثم أُتي الى حضرتها باثنين كان احدهما ابَّاعقهُ ابنهُ الوحيد فوهبهُ لغني لا ولد لهُ . فقال الاول ان غيظي من عقوق ابني اطار عقلي حتى استافني الى ان التي بهِ كصبية في مستودع التعاسات وقد تبناهُ اذ ذاك رجل آخر بلا ولد . فقالت لهُ وما الذي اوجب نكولك عن ذلك الآن قال انقطاع صوتهِ وصخبهِ عن سمعي . فقالت وهل كان في هذا الصخب ما يطربك قال لا لكن لما غاب شخصهُ عن عيني تذكرتُ ان العيش كلهُ صخب والدهر نفسهُ شيخ متمرد فقلت ما احمقني باحتمال عقوق ابني ولحمة القرابة اشد معهُ منها مع الدهر الآبق ثم املت ان يأتي يوم اكون فيهِ على ائتلاف معهُ . قالت سمعناك فأتوني بالغني المتبني فلما وقف امامها قالت وما حالك قال مولاتي انتِ تعلمين ما كابدتهُ في معترك الحياة حتى جمعت ما جمعتهُ من حطام الدنيا وتعلمين اني لم ارزق ولداً يرث ما اصبتهُ من نعم المولى كما انك تعلمين منزلة المال المجموع بعد

الجهد والجد من قلب صاحبهِ فكنت لهذا لا انفكُّ عن الاستغاثة بالقوابل والاستصراخ بالاطباء فلما اعيتني الحيل وخفت المنايا ان تذهب بشيخ مثلي من غير وارث جئتُ يوم نودي بالحضور الى البطحاء لايداع المصائب حاملاً كربتي المذكورة في صرة املاً ان اصيب عند التوزيع ما يدرأها عني فاذا بهذا الرجل الواقف امامك الآن وضع ولدهُ العقوق فاستبشرت خيرًا واملتُ ان اعطاهُ ولو كان شيطانًا مريدًا فما عممت حتى امرتني ان اتبناهُ واجعلهُ وريثي فاخذتهُ فرحًا مسرورًا الى قصري والبستهُ افخر الملابس وسودتهُ على خدمي وحشمي وولّيتهُ على ما املك فنام حنيثًا وفي الغداة ياكرني وقال عزمت على الاتجار والسفر انتجاعًا لوزق ارفع بهِ مَنزلتي عندك فقلت حبًّا وكرامةً خذ هذه سفتجة ببلغ كبير فاخذها وتهيأ للسفر فودعتهُ ولم يمضِ اسبوع حتى جاءني منهُ كتاب ينبئُ انهُ قد قامر فخسر السفتجة واصبح مديونًا بمثلها قيمة ولذلك يطلب ان امدهُ بالمال فاجبتهُ اني اتعهد باداء ما عليهِ ان عاد اليَّ سريعًا فعاد ومعهُ زمرة من الرعاع وقال قبل التحية والسلام انقد هؤلاء الرجال الكرام المبلغ الفلاني فاجبتهُ انهُ يتجاوز مقدرتي قال لابد من ادائهِ حالاً ثم هم بمسك طوقي ولما حاولت التملص منهُ قبض على خناقي والقاني وشرع يرفسني بنعليهِ حتى اوشك ان يميتني لو لم يتداركني عبد من عبيدي فاعولت بالبكاء واذا بصوت البوق يدعو الى الحضور فهرولت اليكم وبي من اوجاع الضرب والوفس ما يقعد بي عن كل حركة لولا تلهفي للحصول على اجازتك بحل عقد التبني. فاجابت ان الحل لا يستطاع فاذهب من حيث اتيت

ثم مر امامها جمهور لا يحصى من المتقايضين في البلايا والعاهات منهم من يستغيث بها من عين مقرحة اخذها بدلاً من انفٍ مشوه ومنهم من يطلب استبدال الخرس بالصمم والخبل بالارق والخرف بالجنون والامراض الجلدية بالعصبية والبطنة بقلة اشتهاء الطعام. فلما مرت هذه الخلائق وقفت ربة الصبر في وسط تلك الساحة الفسيحة وقالت بعالي صوتها

"معاشر الناس بيضًا وسودًا لقد شاطرتكم منذ عهد ابيكم آدم الحزن على ما تبتلون بهِ من الاحن والكوارث والعاهات ولم افتأ نذيرًا انذركم ان نوازل المكروه لا يمكن رفعها بحيلة من الحيل بل يمكن تخفيف ثقلها بالاستعانة بي واللياذ بعروتي واني لاسفة على ما ارتكبتموهُ من الخطاء في المقايضة التي عرفتم الآن كيف عقباها واعلموا ان المبدع العظيم لما اذن بخلقكم اوصاني بان الازمكم وان لا افارقكم لئلاً لا تجلدوا على المصائب العارضة ولا على الحياة التي ابتليتم بها"

نسيم خلاط